

ابن سعود الملك التقي

المؤلف : وليـامز كينيث

الناشر : جوناثان كيته لتميد

طبع سنة ١٩٣٣

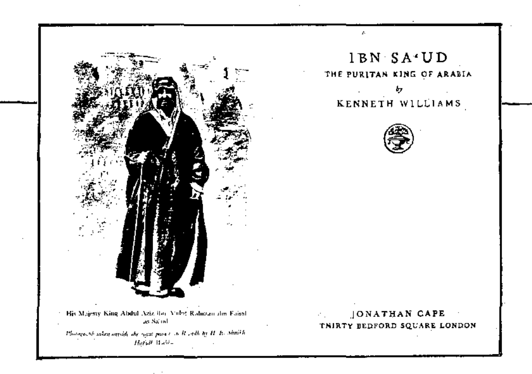
عرض : شحاتة محفوظ

هذا عن حياة الملك عبد العزيز في وقت كانت فيـه الجزيـرة العربية تعاني من الكســاد الاقتصادي الذي اجتاح العالـم ولم يكن قد تم بعد اكتشـاف البترول ويقع الكتاب في حوالي ثلثمائة صفحة حلل فيها المؤلف شخصية الملك عبد العزيز مؤسس المملكة العربية السعودية تحليلا بارعا دقيقا بأسلوب أدبي جميل وقد تحدث عن أعماله وحروبـه واصلاحاته وسياسته باسهاب ·

ويقول المؤلف في مقدمته :

(ان أسمى ماأنتجته شبـه الجزيرة القاحلة هو (الانسان) وعن هذا الانسان الذي يتصرف بدافع من عقيدة شاملة لكـل المعارف أكتب رسالتي هـذه عن (ابن سعود)

لقد اكتسب الملك عبدالعزيز مركزه كباقي حكام الجـزيرة بقوته وشخصيته ومن المؤكد أن النسب له قيمته وأهميته في تلك الارض البـدائية ، ولكـن



His Majesty King Abdul Aziz [illegible] Rahman ibn Faisal as Sa'ud

IBN SA'UD
THE PURITAN KING OF ARABIA
by
KENNETH WILLIAMS

JONATHAN CAPE
THIRTY BEDFORD SQUARE LONDON

الديمقراطية في الجزيرة من أقسى أنواع الديمقراطيات في العالم فلا يمكن أن تسود فيها القوة عن طريق ارستقراطية النسب وحده والحاكم النـــاجح هو الذي يحب شعبه ويحبه شعبه ويرهبه في نفس الوقت ، ولقد قيل أن عبد العزيز أعظم عربي ظهر منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو محارب بالفطرة ، عميق الايمان اداري حازم شق طريقه الى المجد بالايمان والسيف وصان هذا المجد بحزمه وسمـــو خلقه واذا كانت عبقريته حققت توحيد القبائل التي كانت تحارب بعضها بعضا ، واذا كان طموحه قد مكنه من ضم الاراضي العربية المجاورة للخليج وللبحر الاحمر الى بلاده فان ايمانه الراسخ القوي هو الذي حفزه ودفعه الى العمل وجعله متواضعا ان ابن سعود يتقي الله في كل أعماله ويتبع أوامر الدين الاسلامي الحنيف بمنتهى الدقة ويقف وحيدا تقريبا ليحكم هذه البلاد في عالم تزداد فيه الاطماع ٠

وفي الفصل الاول يشرح المؤلف ظهور أسرة آل رشيد وأفول نجم آل سعـــود ويتحدث عن حياة الامام عبد الرحمن وابنه الشاب الطموح عبد العزيز وهما في المنفى ، وقد رحب عبد العزيز الشاب بدراسة خطط الحملة التي كان يعدهاللهجوم على أعدائه الذين استولوا على حائل والرياض وفي نهاية القرن التاسع عشر شعـر عبد العزيز أن الوقت قد حان لاسترداد ملك آبائه وقاد وهو في العشرين من عمره قوة مختلطة من أتباعه ومن رجال الشيخ مبارك وغادر الكويت في خريف سنة ١٩٠٠ وكله ثقة في الله وفي نفسه لمواجهة قوات ابن رشيد ولكن الاخير كان قد علم بأنبـاء الحملة واستعد لها وبينما كانت رغبة مبارك الاساسية هي ضعضعة قوة الرشيد كان هدف عبد العزيز استرداد الرياض ولذلك انفصل عن القوات المختلطة واتجـه الى الجنوب الغربي نحو موطنه وموطن أجداده وقبل أن يتمكن من تحقيق انتصاره بلغته أنباء الهزيمة المنكرة التي حلت بقوات مبارك في فبراير سنة ١٩٠١ في بقعة رملية بين الصريف والطرفيه وعلى الرغم من ذلك أصر الامير الشاب على المضى في خطتـه لاسترداد عرشه وهو يقول :

وماذا لو خسرنا المعركة !

ليس معنى هذا أننا خسرنا كل شيء

لأن ارادتنا لاتقهر

وتفكيرنا في الثار ٠٠ وشجاعتنا ٠٠ وعزيمتنا

لن تخضع ولن تستسلم

وفي الفصل الثاني يصف المؤلف العمل البطولي الذي قام به عبد العزيز للاستيلاء على الرياض وكانت ليلة الخامس عشر من يناير ليلة لاتنسى وانتشرت الانباء في المدينة انتشار البرق وصاح الناس :

(عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن سعود حاكمنا ! الحمد لله يعيش عبد العزيز)

وفي الفصل الثالث يتحدث المؤلف عن ظهور الدعوة السلفية وعن حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونشأته وتأييد محمد بن سعود له في سنة ١٣٤١ ومحمد بن سعود من شعبة المساليخ من ولد علي وبذلك يكون أصلا من قبيلة عنزة وقد تزوج ابنة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وبذلك اتحدت القوتان الروحية والمدنية واستطيع أن أقول أن احداهما لم تكن تستطيع أن تنجح بدون الاخرى لأن القوة الدينية وحدها لم تمكن أسرة حاكمة من البقاء طويلا في الجزيرة العربية كما أن الاسرة الحاكمة القوية التي لاتدعمها قوة دينية لم تكن لتبقى طويلا في الحكم أيضا وكان لابد من وجود عدة عوامل لتأمين بقاء أي حكم ، وأهم هذه العوامل الحماس الديني وكان متوفرا والعبقرية السياسية وكانت متوفرة أيضا ولكن هذين العاملين وحدهما يفشلان اذا لم يكن هناك دعم اقتصادي ٠

وكان الاتراك أشد الناس خصومة للدعوة الاصلاحية لانهم رأوا فيها تهديدا لما يتمتعون به من عادات انحلالية ولذلك فانهم بذلوا كل مافي طاقتهم لكبح جماح محمد بن عبد الوهاب وأتباعه وأتهموه بأنه يحاول فرض دين جديد وحاولوا الحط من قدر أولئك المتطرفين الجدد فأطلقوا عليهم اسم الوهابيين ولسوء الحظ التصقت بهم هذه التسمية الخاطئة ٠

وفي سنة ١٧٧٠ دعا أحمد بن سعيد شريف مكة الى عقد مؤتمر من العلماء لفحص الدعوة وابداء الرأي في تعاليم محمد بن عبد الوهاب وطلب من أعضاء المؤتمر مناقشة الامور الثلاثة الآتية :

١) هل الوهابية بدعة ؟

٢) هل يجوز تشييد قباب فوق المقابر ؟

٣) هل يستطيع الاولياء الشفاعة عند الله ؟

وانعقد المؤتمر وأصدر قراره لصالح أهل نجد المتحمسين ·

وفي عام ١٨١٥ أيضا دعا محمد علي باشا والي مصر الى عقد اجتماع كبير للعلماء في مكة وبعد أن قام العلماء بدراسة دقيقة لمباديء الدعوة أصدروا قرارهم وأعلنوا بالاجماع أنه لايوجد مبدأ واحد من مباديء الدعوة الاصلاحية يتناقض مع الدين الاسلامي الحق وقالوا انه اذا كانت الوهابية هي ماتدارسوها فانهم يعتبرون أنفسهم من الوهابيين المتحمسين وقد سبب هذا القرار صدمة للحكومة العثمانية ، فأهملوا قرار العلماء ولم يوافقوا على هذه الحركة التي لو انتشرت في أنحاء الامبراطورية العثمانية لعملت على تغيير عاداتهم اليومية من جذورها بالاضافة الى عادات الملايين من رعاياها ومن ثم بدأ النضال بينهم وبين الدولة الوهابية الاولى ، ذلك النضال الذي انتهى بتدمير الدرعية في سنة ١٨١٨ على يد ابراهيم باشا ·

وفي سنة ١٨٢١ بدأت الفترة الثانية من حكم آل سعود وبلغت ذروة مجدها في عهد الامام فيصل بن تركي ولكن هذه الفترة انتهت بالحرب الاهلية بين عبد الله وسعود أبناء فيصل وقد أسفرت الحرب الاهلية عن استيلاء الاتراك على الاحساء واستيلاء آل رشيد على الرياض وذهب الامام عبد الرحمن الى الكويت ، ومن الكويت انطلق عبد العزيز ليسترد ملك آبائه وأجداده فاستولى على الرياض بضربة خاطفة بارعة ·

---

(١) كان ابن سعود يفخر دائما بأنه من عنيزة وفي تعامله مع أمراء العرب الاخرين الذين كانوا لايريدون الاعتراف به كان يلفت النظر دائما الى انتمائه الى هذه القبيلة العربية العظيمة ·

وبعد أن قام ابن سعود بتحصين مدينة الرياض بدأ العمل في سنة ١٩٠٢ على اعادة توطيد سلطة آل سعود في مناطق الخرج والافلاج ووادي الدواسر ولم يجد صعوبة في ذلك ، وفي شتاء سنة ١٩٠٢ بدأ النضال بين ابن رشيد وابن سعود وتمكن ابن سعود من الاستيلاء على شقراء وثرمدا وتوسع حتى منطقة سدير باستثناء المجمعة كما سقطت الوشم في أيدي ابن سعود واضطرت قبيلتا عتيبة وقحطان الى دفع الزكاة له ، في سنة ١٩٠٤ احتل عنيزة وبريدة ٠

وبعد أن قام ابن سعود بتأمين حدود نجد أولى عنايته لأمرين الاول هو اصلاح المناطق التي استولى عليها والثاني هو تثبيت وضعه القانوني في الجزيرة العربية ، وكان يعتقد اعتقادا جازما أنه اذا لم يضف شيئا جديدا على نظام الحكم الذي كان يمارسه أجداده في الدولة السعودية الاولى فمن المحتمل أن تعاني دولته بدورها من التفكك في النهاية لانه يدرك أن استرداد مجد آبائه شيء والمحافظة على ذلك المجد شيء آخر ٠

لم يكن ابن سعود يفكر في التصدي للاتراك أو التحرش بهم وكان يكفيه أن يركز جهوده على تنظيم الدولة ومع ذلك فقد وقع الصدام فجأة بينه وبين الاتراك لأنهم أرادوا مساعدة أمير حائل في سنة ١٩٠٤ بعد أن أدركوا أن ابن سعود الذي تؤيده الكويت لابد وأن يكون عدوا لهم ٠

وبعد استيلاء ابن سعود على بريدة وعنيزة تحركت ثمان فرق تركية بقيادة أحمد فيظي باشا عبر الصحراء الشرقية لمحاربة ابن سعود في القصيم وبعد أن انضم اليهم رجال شمر تقدموا باطمئنان على الرغم من أن الصحراء كانت تلتهب من شدة الحرارة ونشب القتال بين الكثبان الرملية بالقرب من البكيرية وانتهى الامر بهزيمة الاتراك فاستسلم بعضهم لجيش نجد ولجأ آخرون الى قبيلة شمر ومات الكثيرون منهم جوعا وعطشا واضطر الباقي الى الانسحاب ٠

وكان انسحاب الاتراك يعني في الواقع اختفاء أمارة حائل الا أن ذلك لم يتم سريعا لأن ابن سعود ظل يناور ثمانية عشر شهرا ليكسب تأييدا شعبيا في القصيم ، ومما يدعو الى الاسف أنه اكتشف في تلك الفترة وجود اتفاق بين حائل والكويت ولذلك قرر ابن سعود توجيه ضربة للذين حاربوه وحقق ذلك بانتصار عظيم في معركة روضة مهنا ثم استولى على القصيم وأخضع ثورة العرايف وانتقم من الهزازنة وأدرك أهل نجد في ذلك الوقت أن ابن سعود سيدهم حقا فأسلموا أمرهم

لابن سعود وربطوا مصيرهم بمصيره واهتم ابن سعود من جانبه ألا يضع الثقة التي أولوه بها في غير موضعها ٠

كان ابن سعود يدرك أنه اذا أراد لحكمه البقاء فلا بد له من انشاء نظام جديد لاتعرفه الجزيرة من قبل ، وبدأ يتساءل لماذا لايعلم أولئك البدو الدين والولاء ؟ ولماذا لايلهب حماسهم الديني ويحوله الى طاقات مفيدة نافعة ؟ ووجد أن ذلك يمكن أن يتم عن طريق ايجاد نظام اقتصادي ديني وفي سنة ١٩١٢ قام بذلك الاجراء الهام وذلك بتأسيس حركة الاخوان الشهيرة ، ولما وجد ابن سعود أنالقبائل تكون العمود الفقري لدولته من الناحية البشرية فكر في أن ترتبط هذه القبائل بالارض من ناحية وأن التعاليم الدينية بطريقة سليمة من ناحية أخرى وكان عليه أيضا اصلاح عاداتهم القبلية لمنعهم من الغزو والاعتداء على جيرانهم وذلك بغرس المبادىء الاخلاقية ٠

وعندما رسم ابن سعود هذه السياسة الجديدة كان في الواقع يقوم بهجوم مشترك على الطبيعة وعلى عادات بشرية متأصلة ولمعرفة ابن سعود بطبقه البدو عزم على حل المشكلة حلا جذريا بتوطين رجال القبائل وربطهم بالارض واقناعهم بالبواعث الدينية التي من أجلها يجب أن يتمسكوا بالارض ، وهكذا أصبح الاخوان يشكلون العمود الفقري لادارة الملك عبد العزيز ولايستطيع انسان أن يعالج مشكلة البدو وينفذ تلك السياسة البعيدة المدى الا اذا كان ذا عبقرية فذة وشجاعة نادرة ٠

وقال كثير من المراقبين أن سياسة الهجر مقضى عليها بالفشل وذلك لسببين الاول هو أن كميات الماء الموجودة في نجد لاتكفي لري مساحات كبيرة من الاراضى الصالحة للزراعة والثاني أن طبيعة البدو وحبهم للغزو لايمكن أن تتغير ، ولكن المعلق الحذر الذي يبحث في جوهر المشكلة لابد وأن يرجىء الحكم على ذلك لانه لايمكن الحكم على اصلاح جذري كهذا الا بعد مرور فترة كافية من الزمن ومع ذلك فان فكرة انشاء الهجر مازالت تعتبر من أبرز وأعظم أعمال ابن سعود التي كانت آثارها بعيدة المدى ٠

وفي سنة ١٩١٣ كان ابن سعود يعسكر بالقرب من الطريق لتأديب قبيلة آل مرة التي لم تكن قد انضمت تحت لوائه بعده ، وفجأة اتجه ابن سعود شرقا وقرر الاستيلاء على الاحساء التي ظل يحكمها الاتراك منذ سنة ١٨٧١ عندما استولى عليها مدحت باشا من أسلاف ابن سعود ، وبالبراعة التي اشتهر بها ابن سعود فتح الاحساء واعترفت به المنطقة بأسرها ورحل الاتراك وهم في ذهول تام لجرأة هذا القائد

العربي الباسل ، وهكذا استرد آل سعود الاراضي التي أخذها منهم الاتراك في فترة من فترات الضعف قبل ذلك بنصف قرن ولاول مرة أصبح الخليج أحد حدود أراضي ابن سعود وقد أدى ذلك الى وجود اتصال مباشر مع البريطانيين ٠

ونتيجة لهذا الاتصال المباشر قام الكابتن شكسبير بزيارة الرياض وقد مال ابن سعود الى ذلك الرجل وبادله شكسبير نفس الشعور وربما كانت التقارير التي بعث بها شكسبير الى حكومته هي التي أقنعت الحكومة البريطانية أن نجما جديدا بدأ يتألق في سماء الجزيرة ٠

وفي الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ١٩١٥ تم توقيع معاهدة بين ابن سعود وبين البريطانيين وتم التصديق عليها في ١٨ يولية سنة ١٩١٦ ، وفي ٢٤ يناير سنة ١٩١٥ حدثت موقعة جراب بين ابن سعود وبين ابن رشيد وان كانت تعتبر من معارك الصحراء النموذجية الا أنها لم تكن حاسمة وفي تلك المعركة خان العجمان ابن سعود وانقلبوا ضده ونهبوا أمتعته كما قتل أيضا الضابط الانجيلزي شكسبير أثناء القتال ٠

وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى واعلان الهدنة بدأ الاحتكاك بين ابن سعود وبين الشريف حسين بسبب مشكلة الخرمة التي كانت تدين بالولاء لأمير مكة ، وحدث في سنة ١٩١٧ أن تمسك الاهالي بالدعوة السلفية وقام خالد بن لؤي فعلا بطرد الاهالي الذين ظلوا متمسكين بولائهم لمكة وأعلن رسميا فصل الحزمة عن الحجاز وتبعيتها لابن سعود وكان ذلك أكثر مما يحتمله الشريف فأرسل الى الخرمة ثلاث حملات واحدة بعد الاخرى وباءت جميع ا بالفشل وانتصر خالد بن لؤي ورجال الخرمة المتحمسون بعد أن ساعدهم جيرانهم من البدو ٠

ولكن اذا كان غضب الشريف شديدا بسبب هزيمة قواته فان غضب ابن سعود كان أشد لفشل السلطات البريطانية في كبح جماح الشريف ، وكان أهل الخرمة يطالبون ابن سعود بحمايتهم ولكنه امتنع عن ذلك تلبية لرغبات البريطانيين وفي النهاية اضطر أن يعلن أنه سيتولى حمايتهم بنفسه ، وكان في نفس الوقت ينتظر قرار الحكومة البريطانية الخاص بتسوية مشكلة الحدود بين نجد والحجاز ٠

كان غضب ابن سعود شديدا ولكن الممثل البريطاني في الرياض أقنعه بالعمل على تلطيف الموقف بارسال رسالة مهذبة الى الحسين محاولة منه لايجاد حل مؤقت ، ولكن الشريف أعاد الرسالة من مكة دون أن يفتحها لأنه كان يرفض التفاوض مع

ابن سعود ويمكن أن نقول أن ابن سعود ، منذ ذلك التاريخ ، اتخذ قرارا صلبا لخلع الحسين وتلقينه درسا يريه أنه لايمثل العرب ٠

وابمناسبة هذا الموقف بين ابن سعود والشريف سجل المؤلف حديثا دار بين الكولونيل هاملتون وبين ابن سعود في سنة ١٩١٧ وقد قال الممثل البريطاني لابن سعود بتهكم أنه لم يفعل شيئا بينما استطاع الشريف بمجهوداته أن يصبح ملكا وبدأت قوته تزداد يوما بعد يوم فرد ابن سعود عليه قائلا :

(انك لاتعرف العرب ٠٠ اننا كالوديان ٠٠ فوادي الرمة مثلا يمتلىء مرتين أو ثلاث في كل قرن ولكنه عندما يمتلىء يكتسح أمامه كل شيء حتى المساكن التي شيدها الانسان على جسوره)

وعلى الرغم من ثقة ابن سعود في الانجليز الا أنه لم يكن راضيا عنهم بسبب انحيازهم الاعمى الى الشريف وبدأ يتساءل :

(حقا لقد رحل العثمانيون ولكن هل يحل محلهم الانجليز الذين يعملون على رعاية الاشراف وحمايتهم ؟)

وقال لفيلبي ذات مرة : **(من يستطيع أن يضع ثقته فيكم بعد ذلك ؟ ان حكومتك اذا كانت لاتريد تعديل سياستها ٠٠ فسأريها مايمكن أن أفعله ٠٠ والله ، ان الشريف مسئول عن ذلك وحده ٠٠ لقد استطاع خداع الساسة الانجليز في مصر ، ولكني سأهاجمه اذا أصرت حكومتك على معاملتي هذه المعاملة السيئة) ٠**

انتهت معارك الخرمة بهزيمة الحملة التي أرسلها الشريف حسين بقيادة ابنه الامير عبد الله في (تربه) وقد تمكن خالد بن لؤي من القضاء على الحملة قضاء مبرما وحضر ابن سعود بنفسه الى الميدان وعلى الرغم من أنه كان قائدا شجاعا الا أنه تأثر كثيرا عندما رأى ذلك العدد الكبير من القتلى فأخذ يتنقل بين القتلى والدموع تنهمر من عيني ذلك العملاق العربي الذي شعر بالاسى وقال :

(هذا هو العبء الذي ألقاه الله على عاتقي فعلى من تقع مسئولية اعادة المشركين الى الطريق السوي ٠٠ وددت لو أني كنت جنديا عاديا أحارب في سبيل الله) ٠

وهكذا تحدث ابن سعود الانسان وقد تأثر كل من سمعوه أو رأوه ، أصبح الطريق الآن الى مكة وساحل البحر الاحمر مفتوحا أمام أهل نجد ، ولكن ابن سعود قنع بذلك النصر الذي أحرزه على الشريف وشعر أن ذلك النصر لابد وأن يقنع الحكومة البريطانية بخطئها وبذلك انسحب نحو الشرق وبرهن بتصرفه هذا على حكمته وحسن تدبيره ، وفعلا كان لذلك النصر أثره في عقول البريطانيين فبدأوا يراجعون أنفسهم ويغيرون أفكارهم عن قدرات ابن سعود ومواهبه وبذلك حقق ابن سعود الهدف الذي كان ينشده .

وفي صيف سنة ١٩٢٠ أرسل حملة الى عسير بقيادة ابنه الامير فيصل الذي استطاع ضم هضبة أبها الى نجد وعادت الحملة في سنة ١٩٢١ الى الرياض حيث استقبل الفيصل استقبالا حارا وأطلق عليه لقب (بطل أبها)

غلب الملك حسين على أمره ولكنه كان لايستطيع أن يفعل شيئا وأخيرا هداه تفكيره الى أن يضغط على ابن سعود عن طريق سادة حائل فأغدق الذهب على ابن رشيد وأمده بالسلاح لمحاربة ابن سعود ولم يكن ابن سعود قد علم بذلك الا أنه كان محتاطا لكل شيء فقرر القضاء على بيت الرشيد وقبل أن يتم له ذلك اجتمع زعماء نجد وشيوخها وعلماؤها في الرياض ونادوا بابن سعود سلطانا على نجد وملحقاتها وسرعان ما اعترفت به بريطانيا .

خرج ابن سعود ليوجه ضربته القاضية الى حائل وبعد حصار دام ثمانية أسابيع استسلمت المدينة وعادت الحقوق الى أصحابها وانتهت تلك الامارة العربية المهيبة التي تمثلت عظمتها في شخصيات عدد قليل من رجالها الاقوياء وبخاصة محمد الكبير ، وقد عامل ابن سعود حائل معاملة رقيقة مهذبة أصبحت في الواقع مثلا رائعا في العالم العربي .

وفي ربيع سنة ١٩٢٤ لم يكن هناك مايمنع ابن سعود من تطهير الاراضى المقدسة فالمعونة البريطانية التي كان الهدف منها منعه من الاعتداء على العرب المرتبطين بعلاقات ودية مع الحكومة البريطانية ظلت تدفع له حتى نهاية شهر مارس وقد انقطعت الان ، كما أن الاخوان كانوا متحمسين للقتال وكانت لدى ابن سعود المبررات للهجوم على الحجاز وذلك لأن مشاعره الدينية ومشاعر الغالبية العظمى من رجاله صدمت صدمة عنيفة نتيجة لتصرفات الشريف وخاصة أنهم منعوا من تأدية فريضة الحج ثلاثة أعوام متوالية .

دعا ابن سعود الى عقد مؤتمر كبير في الرياض حضره الزعماء الدينيــون والعسكريون في نجد لبحث الاجراءات التي يمكن اتخاذها لمعالجة الموقف وقد ترأس المؤتمر الامام عبد الرحمن بن فيصل ، وكان على المؤتمر أن يناقش مطلبين أساسيين الاول من الاخران ويطالبون فيه بالغزو والثاني تسوية مشكلة الحج بالنسبة لأهل نجد ولم يكن الاخوان في حالة تسمح لهم بالطاعة أو الاذعان فأبلغوا السلطان ابن سعود أنهم سيؤدون فريضة الحج سواء أذن لهم بذلك أم لم يأذن وأنهم سيدخلــون المدينة المقدسة عنوة اذا عارضهم الشريف بحجة أنهم وهابيون ٠

وهنا أظهر ابن سعود منتهى الذكاء والفطنة وقــد كشفت هذه الازمــة عن مقدرة هذا الرجل العظيم لانه كان يعرف الاخوان حق المعرفة ويعرف الدعايات التي تروج عنهم لو سمح لهم بدخول الحجاز بطريقة فوضوية دون أن يسيطر عليهم أحد ومن أجل ذلك منع ابن سعود الحج مرة أخرى بعد أن أوضــح للاخوان أنهــم سيذهبون الى الحجاز ويستولون عليه كمفوضين عن العالم الاسلامي وأفهمهم أنه من الخطأ مهاجمة المدن المقدسة في موسم الحج ٠

كانت هذه النصيحة أو بمعنى آخر هذا الامر يدل على الحكمة والذكاء وكــان له أثره الكبير في جزء من العالم الاسلامي وبخاصة الهنود الذين كانوا لايقــرون موقف الشريف كما كان المسلمون بصفة عامة يدركون المخاطر التي يتعرض لهــا الحجاج تحت حكم الحسين ، ويدركون أيضا مدى الانحلال المتفشي في مكة وقد نجح ابن سعود في التركيز على هذين الامرين عندما قرر دخول الحجاز ، وعلى ذلك كان الهدف من حملة الحجاز مزدوجا : ابعاد الشريف وأسرته ثم تطهير الاماكن المقدسة واعادتها الى وضعها الاسلامي السليم ٠

وهكذا تم فتح الطائف ثم مكة في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٢٤ ثم المدينة وجــدة وتنازل الشريف عن الحكم في اكتوبر سنة ١٩٢٤ وفي عيد ميلاد سنة ١٩٢٥ كــان صوت ابن سعود يدوي في عزة وأنفة فخورا بما فعله وكان صوته ينم عن الشعــور بالمسئولية الجسيمة الملقاة على عاتقه وأعلن للممثلين السياسيين الاجانب أن الحرب قد انتهت قائلا :

(لقد جلبنا السلام الى البلاد ونشرنا العدل في ربوعها وسيحكم الاسلام عــلى أعمالنا باذن الله)

وفي الثامن من شهر يناير سنة ١٩٢٦ توج ابن سعود ملكا على الحجاز في الحرم

الشريف دون أي مظهر من مظاهر الابهة والعظمة فاصطف المواطنون أمام مليكهم الجديد يبايعونه ويقسمون يمين الطاعة والولاء كما أقسم ابن سعود أن يحافظ على الشريعة وأعلن صراحة أنه سيحكم بالعدل ولا يفرق بين الكبير والصغير ·

وفي الفصلين الثامن عشر والتاسع عشر تحدث المؤلف باسهاب وبالتفصيل عن اعتداءات الحدود بين نجد وجيرانها وعن حركة التمرد التي قام بها بعض الاخوان وكيف تمكن ابن سعود من القضاء عليها ·

وفي الفصل الرابع والعشرين تحدث المؤلف عن عبد العزيز الانسان فقال ان عاداته الشخصية وملبسه وطعامه كانت بسيطة الى أقصى حد ولم يكن يكترث مطلقا بالعظمة أو مظاهر السلطة لانه لم يكن يهتم الا بالحقيقة فقط وعلى سبيل المثال عندما أصدر علماء نجد والحجاز في سنة ١٩٣١ قرارا بأن الاحتفال بالذكرى السنوية لاعتلائه العرش في الثامن من يناير سنة ١٩٢٦ هو بدعة لاداعي لها وهي عادة أوروبية وليست اسلامية أو عربية ، استجاب ابن سعود في الحال بعد أن اقتنع بقوة الحجة ، ولما كان الاعتراض لايتعلق بأمور الدولة وانما يتعلق به شخصيا ، فانه امتثل للقرار وأمر بالغاء الاحتفال ورد على طلب العلماء باقتباس من القرآن الكريم ·

(رب اني ظلمت نفسى فان لم تغفر لي وترحمني لأكونن من الخاسرين) ، واستمر يردد **(ان فعلت حسنة فمن الله وان سيئة فمن نفسى تحت تاثير الشيطان وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء) (١)**

فكر ابن سعود في القيام باصلاحات عديدة ولكن كل فكرة للقيام باصلاحات أو اقامة نظام متحرر كانت سابقة لأوانها قبل أن يتمكن من اخضاع تلك الامبراطورية الشاسعة ولذلك فان الاساس الذي أقام عليه ابن سعود اصلاحاته هو نشر الامن والعدل في ربوع البلاد وكان هذا في حد ذاته أعظم اصلاح وله أن يفخر بأن العربي استطاع أن يأمن السير في الطريق بمفرده بعد أن كانت الطرق تعج بالقتلة واللصوص وقطاع الطرق ·

---

(١) ذكر هذا الموضوع في ورقة لم تنشر قراها حافظ وهبة في جمعية الشرق الاوسط والادنى في ٤ ديسمبر سنة ١٩٣١

ان فرض مثل هذا السلام على الجزيرة العربية وما أسفر عنه من اصلاحات عظيمة أدى الى عظم مكانة ابن سعود في العالم الاسلامي والى عظم مكانة أسرته وهذا كله في الواقع يشكل قصة حياة ابن سعود ٠

ويقول المؤلف : (ان الايمان بمعناه الاعم ومعناه الروحي كان يتجسد في شخص الملك عبد العزيز ولا شك أن الاثر الذي تركه الملك التقي كان أعمق من أي أثر تركه رجل آخر بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى أن الحكام العرب الذين كانت تخضع لهم رعايا غير وهابيين كانوا معجبين بعبد العزيز وقد أعلن هؤلاء الحكام في نهاية الامر ، طوعا أو كراهية ، احترامهم وتقديرهم للملك ، فقد صرح باعجابه بشخصية الملك عبد العزيز وبتقديره لمنجزاته فيصل ملك العراق في الشمال والامير عبد الله في شرق الاردن والامام يحيى امام اليمن في الجنوب الغربي وكذلك في ناحية الخليج أعجب به سلطان مسقط وعمان وكافة زعماء الساحل المتصالح وحكام امارتي الكويت والبحرين وحتى في الجانب الاكبر من الصحراء الجنوبية الكبرى المفزعة كانت شخصية ابن سعود تفرض على الاهالي السلام ٠

ولم يكن ذلك هو حكم الحكام العرب وحدهم بل ان جميع الانجليز حكموا عليه حكما واحدا لايتغير الا وهو أن ابن سعود رجل فذ كما أن السير برسى كوكس والكابتن شكسبير واللورد بلهافن ، وسنتون والمستر جون فيلبي والكولونيل هـ٠ ر٠ ب ديكسون والسير جلبرت كلايتون والسير فرانسيس هامفريز ، كل أولئك الرجال الذين يمثلون مدارس فكريةمختلفة عبروا عنتقديرهم واعجابهم بشخصية ابن سعود القوية وبعظمته وبخلقه ولم يحدث أن اتفق السياسيون البريطانيون في حكمهم على حاكم شرقي الا على ابن سعود وربما كان الانجليز يحبونه لما تميز به من الرجولة والصدق والصراحة حتى أن السير برسى كوكس الذي اتصف بالحكمة والكفاءة أعلن ذات مرة عندما كان يعمل في الشرق على مسمع مني (المؤلف) أن الملك عبد العزيز لم يخطيء خطأ واحدا أثناء حكمه الطويل ، وهذا قول فصل لايعارضه فيه أحد ممن درسوا الحقائق ٠

ومهما يكن من أمر فهناك حقيقة ناصعة وهي أنه لايوجد رجل انجليزي أو أوربي أو أمريكي قابل الملك عبد العزيز الا واقتنع بأن الجزيرة العربية لم تنجب رجلا مثله منذ عدة أجيال وبأن وجوده أصبح مصدر قوة لا للجزيرة العربية أوالعالم الاسلامي فحسب بل للعالم أجمع بصفة عامة ٠

ونظرا الى المجهودات والمنجزات التي حققها ابن سعود فان الرجل العربي العادي يشعر اليوم بالمزيد من الكرامة والثقة في مستقبله أكثر من أي وقت مضى ٠

ان الحافز الاخلاقي وحده يحدث أثره في العرب بشتى الوسائل ولا شك أن هذا الحافز قد ازداد كثيرا بعد ظهور الدولة الوهابية لأنه لايوجد مظهر من مظاهر الحضارة أو التقدم الا ذلك الذي أوجدته العقول العربية من أجل غاية الاسلام ٠

وهنا يتعرض المؤلف لأسئلة معينة يعتقد أنها تدور في أذهان الكثيرين من قراء هذه السيرة ٠

أليس اتجاه حكم ابن سعود كله يتناقض مع روح العصر أي الشئون الدنيوية العصرية ؟

ألا يشمل العالم الاسلامي اللا أدرية أو الالحاد أو حتى اللامبالاة التي تجتاح العالم الآن ؟

ألا يوجد الآن ميل كبير للتفريق بين أمور الدين وشئون الدولة ؟ ويناقش المؤلف الاجابة على هذه الأسئلة فيقول :

(ان أولئك الذين ينتقدون الملك عبد العزيز التقي الورع يدعون عادة أن معركة التقدم أو العصرية قائمة في كل مكان تقريبا في العالم الاسلامي فيما عدا أراضى ابن سعود ويقول أولئك النقاد أنه في بعض الدول العربية مثل تركيا ومصر حلت الوطنية والقومية على النمط الغربي محل النظم الدينية التي كانت سائدة من قبل ، ويقولون أيضا أن نفس هذا الاتجاه واضح وربما بدرجة أقل في فلسطين وسوريا والعراق ويعتقدون أنه حتى في ايران وأفغانستان تقوم حركات اصلاحية ستؤدي الى جعل الدين من الامور الثانوية في شئون الدولة ويمكن أن يترك الدين لضمير الفرد نفسه ٠

ولا شك أن هذا الوصف للدول الاسلامية بصفة عامة حقيقي لأن أفكار زعماء تلك الدول قد تأثرت بالآراء الغربية ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الفئة المثقفة في هذه البلاد تلعب دورا هاما في حياة الناس لايتناسب مع عدد أفراد هذه الفئة (وهذه ظاهرة لانستثني منها بلاد الغرب)

ولكن مايتمخض عنه أذهان رجال السياسة من أفكار ومالهم من قوة دافعة قد

تدير دفة البلاد لفترة ما الا أن ذلك لايستمر طويلا دون وجود عنصر أسمى (وهو مايأتي به الدين وحده) ولابد من وجود ذلك العنصر لكي تسير البلاد سيرا هادئـا مرضيا وربما كانت توجد في الشرق الاوسط مظاهر قوية أخرى تثبت هذا الـذي تزعم ولا تزال مستترة ٠

وظهرت في الهند أيضا مدرسة جديدة من المفكرين المسلمين كان هدفهم الاول العودة بالاسلام الى نقاوته وطهارته ومن المباديء التي تمسك بها تلاميذ هـؤلاء القادة أن تأكيد الاحساس بالعنصرية يتنافى مع مباديء الدين الاسـلامي ويجب مقاومة هذه الفكرة ، وكانت لهذه الحركة الاسلامية في الهند أوجه عديدة ومظاهر شتى فأحيانا كانت تتطلع الى أن تأخذ من الثقافة الغربية كلما يصلح به الاسـلام وأحيانا أخرى كانت تنبذ الثقافة الغربية وتعتمد اعتمادا كليا على القرآن وقواعد السلوك والاخلاق ولكننا لانجانب الحقيقة اذا قلنا أن اعادة العقيدة الاسلاميـة الى نقائها الاول والتخلي عن كل البدع التي شابت الاسلام كان الهدف الاساسي للدعوة السلفية ، وربما قادت السياسة كثيرا من المسلمين الهنود الى مسالك جانبية ومتاهات حشروا فيها وتعثرت خطاهم ولكن الدافع الاول لها كان على العموم يتجه نحو التطهر والبساطة وسوف يتضح لنا فيما بعد أن مباديء الملك عبد العزيز كانت ذات صلة وثيقة بهذه الاصلاحات التي كانت كامنة في نفوس المسلمين في ذلك الوقت ٠

وقد نشأت في مصر مدرسة فكرية أقرب صلة بالمباديء التي اعتنقها ذلك الملك التقي الورع (ابن سعود) ففي نهاية القرن الماضي سافر المصلح الشهير جمـال الدين الافغاني الى مصر وسرعان ماأصبح لتعاليمه صدى سريع في قلوب المصريين ، وبايعاز من الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية بدأت تعاليمه تدرس في الجامعة الازهرية وهي التعاليم التي لايمكن التفرقة بينها وبين تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي سميت الدعوة السلفية باسمه ٠

يوجد في العالم الاسلامي الآن ثلاث قوى رئيسية وهم العلمانيون الذين يمكن أن نصنف من بينهم معظم الزعماء في تركيا ويوجد كثيرون منهم في دول مثل مصـر والعراق وايران وأفغانستان ، ثم العصريون (أصحاب المذهب الحديث) الذيـن أنجبت منهم مصر أكبر عدد وأخيرا الرجعيون ٠

ويهدف أصحاب الفئة الاولى الى اعادة بناء دولهم واذا أراد العالم الاسـلامي مساعدتهم من الخارج فهذا خير وبركة ولكن رغبتهم الاساسية تنحصر في جعل بلادهم وحدات مستقلة يسودها التقدم والاستقرار ٠

ويسعى أعضاء الفئة الثانية الى ايجاد التعليل العلمي الذي يبرر كثيرا من الامور التي قام بها العلمانيون وذلك للتدليل على أن الامور الدينية في الاسلام يجب أن تتميز عن الامور السياسية كما كانت من قبل (والفكرة السائدة هي أن المجتمع الاسلامي كل لايتجزأ) ٠

أما أعضاء الفئة الثالثة (الرجعيون) فيتمسكون بحرفية القرآن بكل دقة وبكل كلمة قالها الرسول صلى الله عليه وسلم أو أي عمل قام به ولاشك أن الملك عبد العزيز كان من الفئة الثالثة لأن حكمه قام على أساس الشريعة الاسلامية المقدسة ومن الاهمية بمكان أن نذكر هنا أن الملك عبد العزيز كانت له صلة بأكثر من جماعة اسلامية وكان يدرك أن العرب وغير العرب يمجدونه باعتباره مجدد للقديم وقائد للعرب أجمعين ولذلك كانت صلاته محددة بالقوميات العربية في البلدان الاخرى التي كانت تحصر جهادها في تحقيق الاستقلال والاخذ بالحضارة الغربية لاننا لانستطيع أن ننكر الصلة القائمة بين أفراد الجنس العربي مهما اختلفت النظرة الى الحياة من جماعة الى أخرى ٠

وكان الملك عبد العزيز يلتقي بالعصريين في اتجاه واحد وذلك هو القضاء على كل ماعلق بالعقيدة الاسلامية الخالصة وتطهيرها من النوافل التي انبثت فيها منذ العصور الوسطى ، فكان لايبحث الا عن الاسس المكينة للدين وحدها شأنه في ذلك شأن العصريين وأستطيع أن أقول أنه كان يقف موقفا مرموقا « بل كان له أثر محسوس » ازاء الفئات الثلاث ٠

ولا جدال في أن الملك عبد العزيز كان على وعي تام بالمشكلة الكبرى في العالم الاسلامي في ذلك الحين وأعني بها اما العودة الى الاصول الاولى واما نبذ كلما يترتب على الاخذ باتجاهات العصر الحديث ، وكان في هذا الامر يؤثر الاتجاه الاول على الثاني وكان المرشد الهادي في عقيدته هو أنه يجيز حرية العمل فيما لم يذكره القرآن ، أما مايتضمنه القرآن فيجب طاعته طاعة عمياء ، ومع ذلك ففي تقديرنا للمركز الذي تبوأه في العالم الاسلامي نقول أنه كان يتفوق على جميع زعماء الفكر الآخرين بميزة كبرى لانه كان يستطيع التأثير في الآلاف بل الملايين من المؤمنين الذين يؤدون فريضة الحج ٠

ثم يتساءل المؤلف :

أليس نظام ابن سعود كله من صنع رجل واحد ؟

ألا ينهار ذلك النظام بعد وفاته ؟

ويجيب المؤلف على هذين السؤالين بقوله : ان الدولة الوهابية (السعودية) ، الحالية هي من عمل ابن سعود وحده ، حقا لقد ساعدته بعض الظروف المعينة ولكن بناء ذلك الصرح الضخم شيدته أيديه وليست أيدي أخرى ، ومع ذلـــك لم يكـن طموحه الشخصي وحده هو الذي رفع ذلك البناء الشامخ الذي أقام عليـه حكمـه لأن قوة دافعة من الدين كانت تدفعه الى ذلك ولاشك أن هذه القوة الدافعة ستبقى بعد وفاته ، ان قدرته وتوجيهه لتلك القوة هي التي وضعته في المكان الذي يتبوأه الآن وهي التي نفخت الحياة في تلك القوة لكي تضع أساسا دائما لمملكته ٠

ان المشكلة التي تواجه ابن سعود الآن فعلا ليست دينية في أساسهـــا وليست سياسية أيضا وانما هي مشكلة اقتصادية لأن الاقتصاد دائما وفي كل مكان يسبـــق السياسة وهو أرسخ منها قدما ، كما أن الاساس الديني وحده لايكفي للابقاء عـلى أية مملكة من الممالك ٠

حقا كان الملك عبد العزيز عظيما في المجال الديني وفي المجال السياسى أيضا لأن عبقريته السياسية في الدبلوماسية كانت تتغلب على كلمايواجهها من عقبات ولم يكن أحد يرتاب في هذه الناحية مطلقا ، ولكني (المؤلف) أتساءل ماهو الموقف في البلاد من الناحية الاقتصادية ؟ ان الحج هو المصدر الاول للايرادات ولكني لاأستطيع أن أتنبأ ما اذا كان هذا المصدر سيأخذ في الزيادة أو النقصان ٠

كما أن اللؤلؤ الذي جلب في الماضى ثروة للموانيء السعودية في الخليج قد قل الآن وان كان من الجائز أن تعود تجارته من جديد ٠

ولكني لاأستطيع أن أصدر مثل هذا الحكم على تجارة الابل التي كـــانت في القرون السابقة مصدرا هاما للتجارة بين أهل نجد وجيرانهم ولكن تجارة الابل قد انتهت وليس هناك أمل في عودتها الا الى سوق محدودة جدا ٠

ثم ماذا أقول في شأن البترول في الاحساء والمعادن في الحجاز ٠ ؟

ولكني أستطيع أن أقول على الاقل أنه اذا قيض الله انسانا يستطيع أن يجلب لهذه الارض القاحلة مصدرا دائما للرفاهية ــ كما قيض لها الرجل الذي وفر لها السلام الدائم ــ فلن يكون هذا الانسان الا عبد العزيز ٠

